

أهداف الحرب الإسرائيلية

بقلم غسان سلامه

ورافائيل ايتان واسحق مردخاي، حتى امست لائحة "الليكود" شبيهة بصورة متخرجين عجة من احدى الكليات العسكرية يتوسطهم ضابط مظلي شاب لم تفارق اصبه الزناد.

والتوقيت انتخابي ولا شك، والا فلماذا هذا العدوان المفتوح اليوم بالذات، اي ستة اسابيع قبل يوم الاقتراع، بينما كانت الحدود مع لبنان هادئة نسبيا خلال الفترة المنصرمة، وهادئة بصورة كافية لكي يزورها رئيس جمهورية فرنسا؟ ولماذا هذه الحرب على لبنان لو لم يكن بيريس يطبق مجددا قاعدة قديمة من قواعد التعامل الاسرائيلي مع الجيران: "عاقبهم دوما، فان لم تستطع ان تعاقب من يستحق عقابا، فاستعض عنه بمن هو بمتناول اليد". صدقية بيريس اهتزت بعنف بعد العمليات الانتحارية الاربع في القدس وتل ابيب وعسقلان، لكنه لا يبدو قادرا على ان يضمن عدم تكرار هذه العمليات ولا على معاينة طهران التي يتهمها يوميا بانها "عاصمة الارهاب ومنبعه"، فالاسم لمعاينة لبنان وجني عناقيد الصدقية حتى قبل نضجها وفي غير حقولها.

الحافز والتوقيت انتخابيان طبعاً. وهذا ما يفسر موقفا اميركا متفهما، متواطئا ان لم يكن مشجعا على الضرب والحرب. يخوض كلينتون معركتين انتخابيتين متتاليتين. الاولى في اسرائيل حيث يسعى بما اوتي من نفوذ لانجاح بيريس وحزب العمل، والثانية في الولايات المتحدة حيث يعمل لولاية جديدة. وللخوض في الاقتراعين، اعطى كلينتون بيريس شيكا على بياض "ليحارب الارهاب" اينما شاء وكيفما شاء، وجير بيريس ذاك الشيك الثمين لجنرالاته ليتصرفوا وفق سيناريوهات

- التتمة في الصفحة ١٨ -

هل ان هذا العدوان مهرجان انتخابي دام لحزب العمل على ارض لبنان؟ هل هذا مهرجان وحسب؟

للوهلة الاولى، تبدو الحرب الاسرائيلية على لبنان، فعلاً من حملة بيريس الانتخابية، حافظا وتوقيتاً. اما الحافز فهو رغبة "صانع السلام" الاكيدة بتعديل صورته لكي يصبح "صانع الحرب" ايضا، فالذي اتفق مع عرفات منذ سنوات ثلاث، سارع لتحميله مسؤولية عمليات "حماس" الانتحارية، والذي وافق على الانسحاب من بعض غزة والضفة قرر اعمال جبروته العسكري فيما مجددا ثم عزلها. والقائل ان الشرق الاوسط لن يعرف بعد اليوم جنرالات سوى "جنرال موتورز" و"جنرال اليكتريك" اطال الجبل لجنرالاته لكي يعيئوا دماراً ما استطابوا على ارض جارهم الى الشمال.

كان رئيس الوزراء الراحل رابين يقول دوما انه لو خير بين رئاسة الوزراء ووزارة الدفاع لما تلكأ لحظة في اختيار الثانية، ففي بلد مدجج بهوية الكاكي، ملتف كالسوار في المعصم حول مؤسسته العسكرية، وزارة الدفاع هي معظم الاحيان القلب والعقل والمركز وفيما كان رابين يستقبل في الاجمال زواره حتى من المدنيين والديبلوماسيين، يمتطي بيريس اليوم صهوة العسكرية تاريخيا عينها ليستبقي في سلة حزب العمل تلك الاصوات المتفرقة التي نهبت في السابق لحليفه اللدود رابين وقد تفضل اليوم ان تفارق "صانع السلام" و"صاحب الرؤى" بيريس فتهرول نحو بيبي نتنياهو الذي "دحش" في لائحته الانتخابية ما استطاع من الجنرالات ذوي السوابق في الممروجات الجوية والبحرية والارضية، من امثال ارييل شارون

◀ أهداف الحرب الاسرائيلية

- تمة المنشور في الصفحة (1) -

موضوعة منذ زمن، من دون رادع سياسي اسرائيلي ولا كاجح دبلوماسي خارجي.

اما الكلام الاميركي الموجه نحو "صانعي السلام" من العرب، فهو بسيط للغاية: كلنا في حاجة لفوز بيريس في الانتخابات وبالتالي علينا ان نعمل معا لانجاحه: على مسقط والدوحة استقباله. على الرياض والجزائر ان تحضرا قمة شرم الشيخ. على عمان ان توسع من تعاونها العسكري معه وعلى القاهرة ان تسكت على خطة اسرائيلية منهجية لتحجيم دور مصر وعزلها عما هو شرق السويس. وعلى دمشق ان تدفع ثمن تحالف قديم مع طمران، وعلى بيروت ان تتحمل فاتورة عدم تجريد "حزب الله" من السلاح.

هذا النمج المحكوم بالمواجس الانتخابية يفضي الى خلاصة واضحة: من يؤيد التسوية عليه ان يحترم حرية بيريس بالتحرك، حربا او سلما، اطلاقا للنار او وقفا لها. بل اكثر من ذلك، على مؤيدي التسوية ان يسمحوا لبيريس بتسجيل "نقطة ما" يواجه بها "الليكود" ويتمكن من اقناع الناخب الاسرائيلي بأنه حين يجنح للحرب، فهو قادر على تسجيل النقاط، مثل خصومه من "الليكود" ان لم يكن اكثر. لذا فلن نتوقف هموجة بيريس العسكرية منطقيا الا ساعة يفوز بهذه "اللقطه" لكي لا يأخذ عليه تنياهمو اكتفاءه المريب بانصاف الطول الامنية، او قلة العزم على "محاربة الارهاب" واستئصاله.

هل نكتفي فعلا بهذه الحسابات الانتخابية؟ هل ان ما يحصل من قتل وقصف وتمجير مجرد فاصل خارجي، مجرد ملحق هامشي للمعركة الانتخابية الحامية الوطيس في اسرائيل؟ لا. طبعاً لا. ففي ثنايا هذه الجولة الدائمة عناصر تتجاوز يوم الاقتراع لتسهم في تحديد معالم ما يليه من الايام والازمنة.

اول هذه العناصر تقني. لقد ولي زمان المواجهات المباشرة والعمليات البرية الواسعة والاجتياحات الارضية. ما تقوم به اسرائيل في لبنان تكرر مصغر لما قامت به الولايات المتحدة في الخليج. اي حرب التحكم عن بعد، رقصة الصواريخ المرسله من البحر، والطائرات القاصفة من بعيد والمليكوپتر المزمجرة عن مسافة. لم تعد الدول المتقدمة (واسرائيل بالتأكيد منها) قادرة على ارسال العسكر لساح القتال. لقد حل الاستعداد للقتل مكان الاستعداد للموت، وجاءت "الحروب النظيفة"، "الصواريخ الذكية" لتدفع خارجا قتال الرجال التقليدي. ويبدو الجهد التكنولوجي الاسرائيلي في السنوات الاخيرة منصبا بالذات على الانتقال من الحروب التقليدية ومن العمليات العسكرية البرية الى مرحلة "فلش القوة" من دون حصول اي تماس بشري. فتواجه اسرائيل اعداءها بالتكنولوجيا وتتحول الحروب تدريجاً الى صدامات بين الناس والآلة، لا بين العسكر من الطرفين. وما يمر به اللبنانيون هذه الايام اختزال لما شعر به العراقيون قبل ست سنوات: صواريخ، طائرات، بوارج في عرض البحر وليس من عدو ملموس، تصب عليه جام غضبك، او تجعله يدفع ثمن الغطرسة. الانسان من جهة والآلة العمياء من اخرى.

ثاني العناصر اقتصادي. والرسالة اوضح بالذات لانها صادرة عن بيريس "داعية السلام" القائم على التعاون الاقتصادي و"البحبوحة الاقليمية" ومفادها: "لا اعمار في لبنان قبل انخراطه في التسوية" من هنا التهجير، وقصف المنشآت الكمبرائية، والتلويح بالقدرات على اثاره العواطف المذهبية وكلها تصب في موقع واحد: من غير الممكن ان يستعيد لبنان عافيته وهو لم ينزع بعد سلاح المقاومة. ويتيج جنرالات اسرائيل منذ بدء العملية بقدرتهم على الايذاء الاقتصادي من دون تحمل وزر الاف القتلى المدنيين في صفوف اللبنانيين كما حصل عام ١٩٨٢، مما قلب الرأي العام العالمي آنذاك ضدهم. اصبح تأخير النهوض الاقتصادي سلاحا موجعا تلجأ اليه اسرائيل قاصدة ناوية.

ثالث العناصر، وفي الارجح ادقها، دبلوماسي. ففي اليوم نفسه الذي انتهمت فيه قمة شرم الشيخ استمر الخلاف عنيفاً بين الاطراف الذين حضروها. اذ اعتبرت اسرائيل، والولايات المتحدة معها، ان ما تم الاتفاق عليه في الاساس هو الاستئصال المنهجي لـ"الارهاب"، تلعب فيه اسرائيل دور البطولة، والاطراف العرب دور المساندة. بينما اعتبر الاطراف العرب (واولهم القاهرة) وبعض العواصم الاوروبية (اهمها باريس) ان هدف المؤتمر كان "انقاذ عملية التسوية"، لا حملة شعواء، بدون اي اعتبار سياسي، على كل من يروق تل اييب او واشنطن اعتباره ارمابيا.

هذا الاختلاف في التفسير تحول خلافا في المسلك، فعبّر عمرو موسى عن ضيق صدر مصر بحرف المؤتمر عن أهدافه، والسعودية عن تمسكها بالتسوية هدفاً وباريس عن موقف يسعى لأن يكون وسطاً بين مختلف الأطراف. وما يجري اليوم في الواقع هو انزلاق تدريجي لواشنطن من موقع "الوسيط النزيه" الذي تبنته ولو شكلياً في مدريد الى موقع "الحليف الامني" لاسرائيل. في المقابل اعلن شيراك من القاهرة رفضه لدور بوليس مساند، او لدور اوروبي محض مالي في عملية التسوية. فرفض القطيعة مع طهران وارسل اليها وزيراً، كما ارسل وزيراً اخر الى دمشق بينما بدأ كريستوفر يتناساها. وما نشهده اليوم هو نوع من الاستقطاب الجديد قوامه تحالف اسرائيلي - اميركي متين تواجهه قوى اقليمية متعددة تناهض التسوية وفي الوسط قوى عربية واوروبية (نواتم مصرية - فرنسية) تسعى جاهدة لبناء "وساطة سياسية" جديدة، بعدما تخلت واشنطن (موقتاً؟) عن تلك الوساطة حتى في جوانبها الشكلية.

اما رابع العناصر فهو استراتيجي. فالعملية الراهنة جزء من عملية واسعة تتعدد قوائمها: اتفاقات عسكرية مع تركيا، وتطبيع مع بعض الخليج وكل المغرب، وتعاون مع من يرغب. وتهدف هذه الاستراتيجية للعودة الى طاولة المفاوضات يوماً مع سوريا وقد تم تعديل ميزان القوى بعض الشيء لمصلحة اسرائيل، وهو نوع من تشبيه حالتنا بحال البلقان، اي اضعاف احد الاطراف لدفعه الى قبول تسوية لا يعترضها مشرفة. ولب هذه الاستراتيجية اقليمياً الضغط على التحالف السوري - الايراني لفك عراه، وعلى الحكومة اللبنانية لدفعها للاصطدام بالمقاومة قبل العودة الضرورية الى طاولة المفاوضات في ميريلاند او في غيرها من الاماكن.

تتجاوز العملية الاسرائيلية اذن حدود الحسابات الانتخابية البحتة لتحاول الاسهام في نوعية التسوية التي يمكن البحث فيها بعد ان تصمت المدافع. وهي بالتالي معركة تتجاوز الخمسة واربعين يوماً التي تفصلنا عن انتخابات اسرائيل.

في هذه المعركة غير المتكافئة، لا يعدم لبنان سلاحاً؟ فهو ان تمسك بوحده الوطنية، وان استطاع ان يفرض مؤسساته الشرعية محاوراً اول للعالم في مسيرة البحث عن وقف العدوان، وان استطاع استيعاب النتائج الاقتصادية والاجتماعية المتوقعة للحرب المعلنة عليه والدائرة على ارضه، وان عرف كيف يدفع بالقوى الوسطية الجديدة للدفاع عن سيادته وعن ارضه، قادر على تجاوز محنة فرضتها عليه مآزق المفاوضات على التسوية وهو اجس بيريس الانتخابية.

وفي انتظار العودة الى طاولة التفاوض، يبقى اتفاق تموز هو نقطة الانطلاق الصالحة. بيريس في حاجة الى "تموز زائد" مكسب جديد يضعه امام عين ناخبيه. اما لبنان فلا يستطيع ان يقدم الا "تموز افضل" اي ادق تنفيذاً في احترام السكان المدنيين من الجانبين والحفاظ على حياتهم واملاكهم. وقد يكون تفعيل القوة الدولية المرابطة في الجنوب كقوة مراقبة لحسن تنفيذ "تموز" في انتظار دورها في تنفيذ القرار ٤٢٥، هو الباب الافضل، لحسن تنفيذ "تموز" ولتجنب دفع ما هو اكثر منه.

غسان سلامة

النهار ١٦/٤/٩٦